رمزيّة الزواج، والأبوة والأمومة في أشعيا الثاني

الأخت د. باسمة الخوري الأنطونيّة
أستاذة مادة الكتاب المقدّس في جامعة الروح القدس – الكسليك

مقدّمة

شكّل سقوط اورشليم سنة ٥٨٧ والنفي الى بابل مفصلاً تاريخيًا للشعب العبراني. فقد غابت كل التأملات التقليدية التي كانت تعبّر عن العهد بين الله وشعبه؛ والملك "مسيح الرب" اقتيد الى المنفى حيث عرف ميتة بائسة، بعد أن اقتُلعت عيناه...، والهيكل، مسكن الله المقدس، دنّسته جيوش نبوخذنصّر، قبل أن تحرقه وتجرفه. حمل المنتصرون معهم الآنية المقدسة، وكل ما كان يشكّل فخر الهيكل الذي بناه سليمان ومجده، بعيدًا عن الأرض الموعودة، تساءل المنفيون: هل يكون الله، إله إسرائيل، أضعف من مردوك، إله بابل؟ هل نسي وعوده؟ هذا ما حاول أنبياء المنفى، كلٌ بحسب لاهوته ونظرته، الإجابة عليه.

إنطلاقًا من كارثة تدنيس الهيكل، ركّز حزقيال على حضور الله في الشعب وليس في مكان معيّن. أكّد أن الله غير محصور في الهيكل، بل يرافق شعبه في المنفى. كان حزقيال، قبل الأزمة، الكاهن المنفي الى بابل منذ سنة ٥٩٨ (بعد حصار أورشليم الأول)، قد رأى مجد الله يحمله الشروبيم، الذين يشبهون الحيوانات الأسطورية التي تزيّن قصور بابل، تاركًا هيكل أورشليم لينضم الى المنفيين في بابل (حز ١١)، ففهم أنه لا يمكن لإله العهد أن يُسجَن بين حيطان، ولو كانت مذهّبة وملأى بالبخور... إن مسكن الله ليس معبدًا مصنوعًا بأيدي البشر، بل الناس المكرّسين له[1].

أما أشعيا الثاني (أش ٤٠–٥٥)، فانطلق من لاهوت شمولي، ليعلن ان الله لا يمكن أن ينقض عهده. فهم هذا النبي أن كارثة التهجير ليست سوى مناسبة، يعلن الله من خلالها عهده للبشرية أمام الأمم كافة. فالله ليس إله مملكة إسرائيل وحدها، بل هو إله كل الشعوب. هو الثابت والأمين الذي لا يتعب (أش ٤٠: ٢٨). هو الحب الذي لا تعادله محبة بشرية، ولو كانت محبة الأم ورحمتها (أش ٤٩: ١٥–١٦). فإن كان الله قد اختار اسرائيل شعبًا له، فليس لكي يمتلك هذا الأخير الله، بل لكي يكون شاهدًا للخلاص الذي يقدّمه الله لكل شعوب الأرض (أش ٤٩: ١٢)[2].

أشعيا ولاهوت العهد

في القسم الأول من كتاب أشعيا (١–٣٩) قناعات لاهوتية، جعلت منه مدرسة نبوية قائمة بذاتها، ومتميّزة عمّا حولها في لاهوت التاريخ.

(١) هذا ما يعلنه بولس بقوله "نحن هيكل الله الحي" (٢ كور ٦: ١٦).

(٢) لكن هذا التذكير بأمانة الله ورحمته لا يكفي، فالنبي يرى في الله سيد التاريخ، القادر على أن يُرسل ملكًا وثنيًا يكون لشعبه مسيحًا يُنهي منفاه. هذا ما تمّ سنة ٥٣٨ عند صدور مرسوم قورش، القاضي بالسماح للمنفيين بالعودة.

- ركّز أشعيا أولاً على قناعة بسيطة وقوية في الوقت عينه، مفادها أن الله يكمل عمله مهما كانت الحال. هو قادر على تحقيق عمله ولو لم يتمّم البشر مسؤولياتهم، لأنه ثابت في مقاصده رغم كل شيء.
- أبرز ثانيًا نظرته الى وحدانية الله، ومُلكَه على العالم بأسره، وعلى التاريخ بأكمله. فإضافة الى القناعة الأكيدة بأن الله متعالٍ، يُبرز هذا النبي قناعته بأن الله اختار الشعب العبراني. هذا ما يقود الى التأكيد بأن ما يفصل الانسان عن الله ليس طبيعته المخلوقة بل خطيئته المقصودة، مما يعني بأن الرابط بين الله القدوس والانسان، هو الايمان غير المشروط، أي الاتكال على الله والاقتناع بأن كل شيء يمكن أن يخلص عندما يبدو كل شيء هالكًا، لأن الله قادر أن يحوّل أكبر الكوارث الى انتصارات باهرة.
- وعاد ثالثًا الى عهد الله لداود بدلاً من عودته الى العهد السينائي، بهدف إبراز نظرته إلى المسيحانية الملكية، مع التأكيد بأن الخلاص سيطال العالم كله والخليقة بأكملها (١١: ١-٩) إنطلاقًا من أورشليم (١٤: ٢٤-٢٧).

بالإرتكاز الى هذه الأفكار اللاهوتية، يوم كان الشعب قد خسر الأرض والملك والهيكل، توسّع اشعيا الثاني (٤٠-٥٥) في نظرته إلى ملكوت الله، وإلى سيادة الله على التاريخ، والأحداث، والبشر جميعًا بحسب تدبيره هو، وهذه المرّة عبر إبراز عهد سيناء، وخلاص الله لشعبه وأحداث الخروج؛ وعبر إعادة تذكير الشعب بمسؤوليته الرسولية.

أشعيا الثاني: لاهوته والأسلوب

في الفصول الستة عشر التي تؤلّف هذا القسم من كتاب أشعيا، إعلان حاسم لقيام ملكوت الله. فالنفي يشرف على نهايته، وعودة المنفيين أصبحت وشيكة جدًا. إنه زمن قيام ملكوت الله على الأرض: نظرة مثالية للمستقبل، تقوم على إعادة بناء الهيكل والمدينة المقدسة (٤٤: ٢٨؛ ٤٥: ١٣ الخ.)، وعودة المنفيين من العالم بأسره (٤٨: ٥-٦؛ ٤٩: ١٧-١٨، ٢٢-٢٣)، وسلام تام للشعب المؤمن بإله واحد (٤٨: ١٧-١٨؛ ٥١: ٣؛ ٥٤). هذا التحوّل ليس سوى إعلان لتحوّل الانسانية بأكملها في السلام والايمان بالإله الواحد.

تتمحور كل الوعود حول الله. فالمقصود هو مجد الله في شعبه. الله في نظر النبي هو العلي المتعالي، الواحد الذي لا يُدرَك. هو الذي لا يمكن تشبيهه بشيء أو بأحد (٤٠: ١٨؛ ٤٦: ٥)، هو الأول والآخر. كل أعمال الخلاص تؤول الى مجده، والأحداث السياسية ليست بالحقيقة سوى أحداث دينية، يطبّق فيها السياسيون (قورش خاصة) إرادته وعمله.

لكن النبي يعبّر في الوقت عينه عن حنان الله بكلمات جديدة تثير الاستغراب. يتوجّه الكتاب الى أناس محبطين، يحترم بؤسهم وآلامهم، ويُظهِر عناية الله ومحبته لهم. يدعو إسرائيل "شعبي"، والمنفيين "خاصتي"، والمؤمنين "أبنائي وبناتي". يشدد على التعابير العاطفية فيشير الى إبراهيم بـ"إبراهيم خليلي"، والى داود بـ"حبيبي"، وإلى أورشليم بـ"مدينتي".

على عكس القسم الأول من الكتاب، حيث تسود ذكرى داود والملكية، يتمحور هذا القسم الثاني حول موضوع الخروج. وقد أبرز النبي حدث الخروج من خلال المفهوم القانوني لواجبات المُفتدي "**גאל**"، فأكّد أن الله الذي خلّص من كانوا مستعبدين تحت النير المصري[٣]، سيقوم اليوم بخلاص باهر، أكبر من الخلاص الماضي "لأني أنا الرَّبّ، أنا الأوّل ومع الآخِرينَ أنا هو"[٤].

(٣) رج أش: ٤١: ١٤؛ ٤٣: ١؛ ٤٤: ٢٢-٢٣؛ ٤٧: ٤، ١٧-٢٠؛ ٤٩: ٢٦؛ ٥١: ١٠؛ ٥٢: ٣.

(٤) رج ٤١: ٤، ١٣، ١٧؛ ٤٣: ٣، ١١، ١٥؛ ٤٥: ٥.

نعم إن الله الخالق هو الإله مخلّص العالم أجمع (٥١: ٥). هو القادر على صنع الخلاص في كل زمان ومكان، لأن من خلق، يفتدي (٤١: ٢٠؛ ٤٣: ١)، ويسود على التاريخ كله (٤٠: ٢٨؛ ٤١: ٥-٩؛ ٤٣: ٦؛ ٤٨: ٢٠). وما دور اسرائيل سوى تعميم فداء الله في كل الأرض، فتتوب كل الأمم الى الرب. جعل الله بينه وبين الشعب عهدًا ليكون شاهدًا له أمام الأمم (٥٥: ٣-٤).

إنطلاقًا من هذا الإطار اللاهوتي-الرسولي يمكننا أن نفهم موضوع رمزية الزواج والأبوة والأمومة في أشعيا الثاني.

علاقات الله الزوج بالشعب - الزوجة

الله زوج إسرائيل

أعطى الكتاب المقدس صورًا عديدة للعهد بين الله وشعبه، من أبرزها صورة الزواج. فالعلاقات الزوجية هي العلاقة الأكثر حميمية وعمقًا بين العلاقات الانسانية كافة. بكل جرأة وفنّ، شبّه الأنبياء علاقة الله بشعبه بحميمية هذه العلاقات، فتكلموا عن كل مراحل الحياة الزوجية: الخطوبة والوعود والزواج و"المعرفة" والخصومات والعشق والزنى والخيانة والغيرة والطلاق والمصالحة، وكل ذلك بلغة بشرية قوية، ومن خلال صور حيّة حسّية جدًا أحيانًا.

تقدّم صورة الزواج رمزاً للعلاقة الحميمة التي يريدها الله مع شعبه. من خلالها، يبدو الله الزوج المحبّ الأمين، وتأخذ عذراء إسرائيل دور الزوجة، التي غالباً ما كانت خائنة زانية، تركت زوج صباها وتبعت عشّاقاً كثيرين (هو ١-٢؛ أش ٥٤: ٥-٨؛ إر ٣). أُغرم الله بهذه العذراء وهو غير مستعد للتخلّي عنها، شرط أن تعود فيغفر لها ويعيدها، رغم أن موسى لم يسمح بإعادة الزوجة الزانية (إر ٣: ١-٢). لكن عذراء إسرائيل لم تعرف الأمانة لعهد زوجها-إلهها وأبيها، "لأن زوجك هو صانعك" (أش ٥٤: ٥-٨)، "صرخت إليّ: يا أبي، أنت رفيق صباي" (إر ٣: ٤)؛ لكن الرب قال: "ارجعوا أيها البنون الشاردون، فأنا سيّدكم، فأعطيكم حكامًا على مشتهى قلبي، فيحكمونكم بمعرفة وفهم" (إر ٣: ١٤). هذا ما نقرأه أيضًا عند النبي هوشع المعاصر لأشعيا، في معرض كلامه عن العهد بين الله وشعبه. فيشبّه الله بالزوج المخدوع والغافر (٥).

يأخذ الشعب العبراني إذًا، بشكل عام، صورة المرأة، فيما يُعطى الله دور

(٥) يُقسّم كتاب هوشع الى قسمين: يتناول القسم الأول (هو ١-٣) مسألة زواج النبي وولادة أولاده، ثم يذكر نبوءة ضد إسرائيل. في القسم الثاني (هو ٤-١٤) يأمر الرب النبي بأن يتزوج زانية وأن ينجب منها أولادًا. والغريب في الأمر أن هوشع يطيع الأمر، في حين أن زواجًا كهذا محرّم في اسرائيل أو أقله غير جائز. يتناول التلمود هذه القصة في تفسيره، فنقرأ في فصحيم ٨٧أ: "كَلِمَةِ الرَّبِّ الَّتِي كانت إِلَى هوشعَ بنِ بئيري، في أَيَّامِ عُزِّيَّا ويوتامَ وآحاز وحزقيَّا، ملوكِ يَهوذا، وفي أَيَّامِ يارُبْعام بن يوآش، مَلِكِ اسرائيل". بدءُ كَلامَ الرَّبِّ بِلِسانِ هوشع (هو ١: ١-٢). هل كان هوشع أول من تكلم الله إليه؟ ألم يكن هناك أنبياء كثيرون منذ موسى حتى هوشع؟

يقول رابي يوحنان: كان الأول بين أنبياء أربعة تلقوا الوحي في الحقبة عينها هم هوشع واشعيا وعاموس وميخا. قال القدوس المُبارك الى هوشع: "خطبي أولادك". كان على هوشع أن يجيب: "إنهم أولادك، أحباؤك، أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب، فكن رحيمًا بهم.". لم يقل هوشع ذلك، وفوق ذلك تجرأ وقال أمامه: " يا سيد العالم! العالم كله ملكك. إستبدلهم بأمّة أخرى".

قال السيد المُبارك في نفسه: "ماذا أفعل بهذا العجوز؟ سأقول له: "إذهب وتزوّج زانية. ثم بعد ذلك، سآمره بأن يطلّقها. فإن كان قادرًا على ذلك سأطلّق إسرائيل أنا أيضًا". وهكذا كان، "قال الأزلي لهوشع: "إذهب واتخذ بإمرأة زانية..." فانطلَقَ واتَّخَذَ جومَر، بِنتَ دِبْلايم. فحَبِلَت ووَلَدَت له ... ثم أعطته إبنَين وابنة. قال الله لهوشع: "كان يجب أن تجيب كما فعل موسى معلّمك، ما إن وجّهت إليه الكلمة حتى انفصل عن امرأته. أنت أيضًا إنفصل عن زوجتك". قال هوشع: " يا سيد العالم! عندي أولاد منها، فلا يمكنني إخراجها أو تطليقها". فأجابه القدوس المُبارك: "زوجتك زانية، وأولادك أنت لا تعرف إن كانوا منك أم من أحد آخر، وهذه هي ردة فعلك. إسرائيل هم أبنائي، أبناء أحبائي، أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب...، فكيف يمكنك أن تطلب مني استبدالهم بأمة أخرى؟". فعندما فهم هوشع بأنه أخطأ، بدأ باسترحام الله. فقال له الله: "بدلاً من طلب الرحمة لنفسك، تشفّع من أجل إسرائيل، لأنني بسببك أصدرت بحقّهم ثلاثة أحكام". بدأ هوشع بالصلاة، فألغى الأحكام. ثم باركهم: "وسَيكونُ عَدَدُ بَني إسرائيلَ كرَمْلِ البَحْرِ الَّذي لا يُقاسُ ولا يُعَدّ، وسيَكونُ في المَكانِ الَّذي قيلَ لَهم فيه لَستُم بِشَعْبي أَنَّه يُقالُ لَهم فيه: أَبْناءُ اللهِ الحَيّ" (هو ٢: ١).

الزوج. لكن في بعض الأحيان يأخذ الله صفات المرأة. ربما كان موقف النبي أشعيا، في القسم الثاني من كتابه، مرتبطًا بمكانة النساء في المجتمع الإسرائيلي، اللواتي ربما تكون قد جذبتهن الطقوس المرتبطة بالآلهات، أولاً بسبب إبعادهن عن الطقوس الدينية الرسمية، وثانيًا بسبب مواقف بعض الأنبياء مثل إرميا وحزقيال[٦]، اللذين يستعملان دومًا المذكّر في كلامهما عن الله، ولا يتوانيان عن تشبيه الشعب بالزانية، من جهة ثانية (حز ١٦: ١-٦١؛ ٢٣: ١ت). من هنا يمكن قراءة أشعيا الثاني كردة فعل تجاه تيار، يمكن أن يعطي انطباعًا بأن "الذكورية" في اليهودية هي "قيمة إلهية" في مقابل "الأنثوية المادية". بالتالي، يمكن أن نفهم استعمال النبي للصفات الذكورية والأنثوية معًا في كلامه عن الله.

الله أب ! الله أم! الله أب وأم

غالبًا ما تصف ديانات الشرق الأوسط القديمة الله بالأب، كما في بلاد ما بين النهرين حيث الإله أنو هو: "أب الآلهة" و"أب الآلهة العظيمة". أما في نصوص أوغاريت[٧] فالإله ايل هو "أب الآلهة" لأنه تزوّج الإلهة أتيرات ومنها أنجب العديد منهم، لكنه في الوقت عينه "أب البشر" أي حاميهم[٨]. ونقرأ في الكتاب المقدس أن "كموش، إله الموآبيين، هو "أب الشعب": "هَلَكْتَ يا شعبَ الإلهِ كَموشَ. بَنوكَ أُسِروا وبناتُكَ في السَّبْيِ" (إر ٤٨: ٤٦؛ عد ٢١: ٢٩)[٩]. أما في الكتاب المقدس، فحيث يُدعى الله "أب" فالشعب هو الإبن غالبًا (تث ٣٢: ٦)، وإن دلّ لقب الابن على الملك، فذلك أن الملك في الكتاب المقدس هو شخصية جامعة تدلّ على الشعب كله (ر ج ٢ صم ٧: ١٤؛ مز ٨٩: ٢٧؛ مز ٢: ٧). وقد أُعطي الله في بعض الأحيان لقب "الأب والأم" معًا، فنقرأ في نشيد حتّي موجّه الى إلهة الشمس، ويعود الى مُلْك مورسيلي الثاني (١٣٤٣-١٣١٣)، "أنت أب كل بلد وأمه"[١٠].

أمومة الله في أشعيا الثاني

لا يعطي لاهوت العهد القديم مكانًا كبيرًا لأمومة الله، لكنه، في المقابل، غالبًا ما يتحدّث عن أبوته. أما لقب "الأب والأم" فلا نجده أبدًا في العهد القديم، ربما لأن ذلك كان يمكن أن يشير الى كائن خنثي، في مجتمع محاط بكل أنواع الديانات المرتبطة بالجنس.

في كلامنا عن أمومة الله لا بد من التوضيح بأن الله، في الكتاب المقدس، لا يُدعى أبدًا "أم". فإن أردنا تناول هذا الموضوع، علينا البحث عن النصوص

(٦) رج حز ١٦: ١-٦١؛ ٢٣: ١-٤٠ "هكذا قالَ السَّيّدُ الرَّبُّ أورَشَليم: أصلُكِ ومولدُكِ مِن أرضِ الكَنْعانيّين، وأبوكِ أموريٌّ وأُمُّكِ حِتِّيَّة. ٤ أمَّا مولدُكِ فإنَّكِ يَوم وُلِدتِ لم تُقطع سُرَّتُكِ ولم تُغسَلي بالماءِ تَنْظيفًا، ولَم تُمَلَّحي بالمِلْح، ولم تُلَفّي بالقُمُط. ٥ لم تَعطِفْ عَليكِ عَينٌ فيُصنَعَ لَكِ شَيءٌ مِن ذلكَ ويُشفَقَ عليكِ، بل طُرِحتِ على وَجهِ الحَقْلِ قَرَفًا مِنكِ يَومَ وُلِدتِ. ٦ فمَرَرتُ بكِ ورأَيتُكِ مُتَخَبِّطَةً بدَمِكِ، فقُلتُ لَكِ في دَمِكِ: عيشي (٢). ٧ ... فنَمَيتِ وكَبِرتِ وبَلَغتِ سِنَّ ذُروَةِ الجَمال، فنَهَدَ ثَدْياكِ ونَبَتَ شَعرُكِ، ... وإذا زمانُكِ زمانُ الحبّ، ... وأَقسَمتُ لَكِ ودَخَلتُ معَكِ في عَهْدٍ ... فصِرتِ لي... ١٤ فذاعَ اسمُكِ في الأمَمِ لِجَمالِكِ، لأَنَّهُ كانَ كامِلاً بِبَهائِيَ الَّذي جَعَلَه عَليكِ، يَقولُ السَّيِّدُ الرَّبّ. ١٥ لكِنَّكِ اتَّكَلتِ على جَمالِكِ وزَنَيتِ ... ١٦ وفي جَميعِ قَبائِحِكِ وفَواحِشِكِ، لم تَذكُري أَيّامَ صِباكِ ...أيتها المَرأةُ الفاسِقةُ الَّتي تَأخُذُ أَجانِبَ مَكانَ رِجالِها... تُعْطينَ أُجرَةً ولم يُعْطَ لَكِ أُجرَة... ٣٥ لِذلِكِ، أَيَّتُها الزّانِيَة، اسمَعي كَلِمَةَ الرَّبّ... ٣٦ أُريحُ غَضَبي منكِ وتَزولُ غَيرَتي عنكِ... "مِثلُ الأُمِّ بِنتُها. ٤٤ إِنَّما أَنتِ ابنَةُ أُمِّكِ ... ٦٠ لكني سأَذكر عَهْدي معكِ في أَيّامِ صِباكِ، وأُقيمُ لَكِ عهدًا أبديًّا..." (حز ١٦: ١-٦١)ز ١٠٣ وكانَت إِلَيَّ كَلِمَةُ الرَّبِّ قائِلاً: ٢ يا ابن الإِنْسان، كانَت امرأَتانِ ابنَتا أُم واحِدَة، ٣ فزَنَتا في مِصرَ، زَنَتا في صِباهما هُناكَ دُعْدِغوا ثُدَيّهما، وهُناكَ داعَبوا نُهودَ بَكارَتِهما... وكانَتا لي وولَدَتا بَنينَ وبَنات... فسَقَتا مع قَذاراتِهما، وبَنوهما الَّذينَ وَلَدتاهم لي مرَّرَتاهم بالنّارِ طَعامًا لها ... ٤٠ وأَرسَلتا أَيضًا تَستَدعِيانِ رِجالاً قادِمينَ مِن بَعيد... أَنَّهُما فاسِقَتان..." (حز ٣٢: ١-٤٠)

(٧) E. JENNI, "ab", *THAT*, t. I, München, 1971, colonne 3.

(٨) A. CAQUOT, M. SZNYCER et A. HERDNER, *Textes ougaritiques*, t. I, *Mythes et légendes*, LAPO 7, Paris, 1974, p. 51-100.

(٩) نجد هذه الصفة خاصة في النصوص المتأخرة (أش ٦٣: ١٦؛ ٦٤: ٧؛ ملا ١: ٦؛ ٢: ١٠؛ أم ٣: ١٢؛ طو ١٣: ٤؛ سي ٢٣: ١؛ ٢٣: ٤؛ ٥١: ١٠؛ حك ١٤: ٣؛ إضافة الى إر ٣: ٤؛ ٣: ١٩؛ ٣١: ٩؛ مز ٦٨: ٦).

(١٠) R. LEBRUN, *Hymnes et prières Hittites*, collections Homo religiosus, 4. Louvain-la-Neuve, 1980.

التي تصف الله كأم دون أن تعطيه هذا الإسم. في هذا الإطار نجد العديد من النصوص التي تُظهِر الله من خلال صفات الأم الوالدة والمربية والحامية والحاضرة [١١].

وقبل الولوج في نظرة أشعيا الثاني لهذا الموضوع، حيث نجد أكبر كمية من الصفات الأنثوية مطبّقة على الله، تجدر الإشارة الى أنه ليس الوحيد في استعمال هذا الأسلوب.

أراد من كتَب سفرَي العدد وتثنية الإشتراع، أن ينقل لشعبه تأملاته العميقة في أمانة الله وحبه من جهة، ومسؤولية هذا الشعب في الأمانة لعهد خالقه ومخلّصه من جهة ثانية. فكما أشعيا الثاني، حاولوا تأوين خبرة موسى وعلاقته بالله الباري والمفتدي، من خلال خبرة الخروج وعهد سيناء.

الله أُمّ في عد ١١: ١١-١٥ وفي تث ٣٢: ١-٤٣

"[١١]فقالَ موسى للرّبّ: لِماذا تُسيءُ إلى عبدِكَ؟ ولماذا لم أجدْ حُظوةً عِندَكَ حتى وَضَعْتَ أثقالَ جميعِ هؤلاءِ الشَّعبِ عليَّ؟ [١٢]هل أنا الذي حَبِلَ بهؤلاءِ الشَّعبِ كُلِّهِم؟ أم هل أنا الذي ولَدَهُم حتى تقولَ لي: إحْمِلْهُم في حِضنِكَ كما تحمِلُ الحاضِنُ الرَّضيعَ إلى الأرضِ التي أقسَمْتَ لآبائِهِم عليها؟"

يستعمل موسى فعل "حبل" הָרָה وهو فعل خاص بالمرأة التي ستصبح أمًا. وهو الفعل المستعمَل لحواء (تك ٤: ١)، وهاجر (تك ١٦: ٤-٥)، وبنات لوط (تك ١٩: ٣٦)، وسارة (تك ٢١: ٢)، ورفقا (تك ٢٥: ٢١)، وليئة (تك ٢٩: ٣٢-٣٥؛ ٣٠: ١٧-١٩)، وراحيل (تك ٣٠: ٥، ٢٣)، وبلهة (تك ٣٠: ٧)، وإبنة شوع (٣٨: ٣-٤). صحيح أن الفعل له هنا معنى رمزيًا، لكنه يحتفظ بكل معاني الأمومة. ثم يستعمل موسى فعلاً آخر هو "ولد"، יָלַד، الذي يمكن أن يُستعمَل للأم (تك ٤: ١) كما للأب (تك ٤: ١٨). أما هنا فالفعل يأخذ معنى الأمومة بشكل واضح جلي. أما الفعل الثالث فهو "حمل في الحضن"، נָשָׂא בחיק، رمز المحبة والبذل في سبيل الآخر. وقد استعملته النصوص الآكادية للدلالة على حماية الملك لمواطنيه، وهو رمز مأخوذ من تصرّف الأب أو الأم تجاه الولد[١٢]، كل ذلك يدل على استعمال موسى لمعجم مسؤولية الأم تجاه أولادها، وهو ما يرفضه تجاه الشعب، الذي هو بالحقيقة ابن الله.

تعود هذه الرمزية في تث ٣٢: ١-٤٣: "أما هوَ أبوكَ الذي خلَقَكَ، الذي أبدَعَكَ وكوَّنَكَ؟" (آ ٦)، حيث يُشبَّه الله بالأب. هو الخالق، فهو إذًا أب الشعب. لكنه في النص عينه يعود الى تشبيه الله، من خلال صورة نسائية بقوله "الصَّخرُ الَّذي وَلَدَكَ أهمَلتَه والإلهُ الَّذي وَضَعَكَ، חִיל، نَسيتَه" (آ ١٨). الفعل חִיל هو فعل خاص بالأم التي تلد، وقد استُعمِل لسارة كأم لإسرائيل (أش ٥١: ٢)، وللأيائل (أي ٣٩: ١؛ رج مز ٢٩: ٩). وبالتالي فإن النص يتحوّل من صفات الأب الى صفات الأم في النص الواحد.

أمومة الله في أشعيا الثاني. وقت الولادة: مباغتة وحياة (أش ٤٢: ١٣-١٤؛ ٤٤: ٢، ٢٤؛ ٤٥: ١٠؛ ٤٦: ٣؛ ٤٩: ١٥)

نقرأ في أش ٤٢ نبوءة تمتد من الآية ١٠ حتى الآية ١٧ يدعو فيها النبي المؤمنين لإنشاد مجد الرب بالهتاف، لأنه سيكشف عن نفسه فيعرفه الجميع.

في هذه النبوءة تشبيهان لله. في الأول (آ ١٣) يبدو الرب كمحارب يثير غيرته، وهي صورة نجدها مرارًا في العهد القديم (خر ١٥: ١٣)؛ وفي الثانية في (آ١٤) يعلن عمل الله القريب

(١١) إقترح البعض الكلام عن صفة الأمومة، إستنادًا الى كلمة "رحميم" التي تعني الرحمة والتي تشتق من "ر ح م" أي الرحم. لكن الرحمة الإلهية في مز ١٠٣: ١٣ هي رحمة أبوية. من هنا فمن الأفضل العودة الى الأفعال المتعلّقة بشكل حصري بالأم كالـ"الحبل" و"الولادة" في تطبيقها على الله.

(١٢) E. DHORME, *L'emploi métaphorique des noms de parties du corps en hébreu et en akkadien*, Paris, 1963, p. 108.

"[١٣]الرّبُّ يبرُزُ للقتالِ وكمُحاربٍ جبّارٍ يثورُ. **يهتِفُ ويصرُخُ عاليًا**. ويُظهِرُ جبَروتَهُ على أعدائِهِ. [١٤]طالَما سَكَتُّ يقولُ الرّبُّ، وصَمَتُّ وضَبَطتُ نفْسي. **فالآنَ أصيحُ كالتي تلِدُ، وأنفُخُ مِثلَها وأزفُرُ**"[١٣].

يقوم التشبيهان على مستوى السمع فقط. في التشبيه الأول يبدو الله في صورة رجل محارب يصرخ ثائرًا، فيما يظهر في التشبيه الثاني في صورة امرأة تصرخ لتلد. في الآية الأولى، النبي هو من يتكلم عن الله، فيما في الآية ١٤ الله يتكلم عن نفسه، معلنًا صمته وعدم تدخّله السابق، في إشارة الى المنفى، حين ظنّ المؤمنون أن الله غائب لا يعمل شيئًا.

الصورة فريدة في الكتاب المقدس في تطبيقها على الله. طالما استعمل الكتاب المقدس صورة المرأة التي تلد للدلالة على ألم رجال ونساء في محنة كبيرة[١٤]، لكن المعنى هنا مغاير لما نقرأ في هذه النصوص. التشديد هنا هو على الوقت المباغِت والسريع الذي سيتدخل فيه الله. فما يتوقّف عنده النبي في التشبيه الذي استعمله، هو صوت **الصياح פעה**، وهو فعل لا نجده إلا هنا في كل الكتاب، **والنفخ נשם** وهو أيضًا استعمال وحيد في الكتاب المقدس، **والزفير שאף**، ونقرأه في إر ٢: ٢٤ و ١٤: ٦ بمعنى "استنشاق" الحيوانات للهواء وفي أي ٧: ٢؛ ٣٦: ٢٠ بمعنى "التوق الى". المقصود هو إذًا نفخ الله، صوت تنفّسه القوي المشابه لتنفّس من تلد، نفخة تتسبب بانقلاب كوني هائل ومخيف: "أُخرِّبُ الجبالَ والتِّلالَ وأُيبِّسُ كُلَ أعشابِها، وأجعَلُ الأنهارَ تَنشَفُ وبُحيراتِ المياهِ تَجفُّ" (آ ١٥)، لكنه في الحقيقة إنقلاب من أجل الحياة لكل من يتكل على الله "أقودُ العُميانَ في طريقٍ يَجهَلونَها وفي مَسالِكَ لا عهدَ لهُم بها، وأجعَلُ الظُّلمةَ نُورًا أمامَهُم والطُّرُقاتِ المُعوَجةَ مُستَقيمةً. هذهِ الأُمورُ أعمَلُها لشعبي، فأنا لا أخذُلُهُم أبدًا" (آ ١٦).

ثم ينسب أشعيا الثاني لله أحاسيس وعواطف أم تجاه طفلها، فنقرأ في ٤٩: ١٥: "أتَنسى المرأةُ رَضيعَها فلا تَرحَمَ ثمرَةَ بَطنِها؟ لكنْ ولو أنَّها نَسيَت، فأنا لا أنساكِ يا أورُشليمُ". الآية جواب على الآية السابقة: "قالَت صِهيَونُ: تَرَكَني الرّبُّ! تَرَكني ونَسيَني السَّيِّدُ". الغريب في الأمر أن صهيون هي تشخيص مؤنّث، تتوجه الى زوجها، فإذا بالجواب الإلهي يتجاهل الصورة المذكّرة التي يمكن تصوّرها، ليقدّم نفسه في صورة أم مع رضيعها. ولكي يوضح أن الله لا يمكن أن تحدّه أي صورة مستلّة من التجربة البشرية، يضيف النبي: "ولو أنَّها نَسيَت، فأنا لا أنساكِ يا أورُشليمُ".

وفي معرض كلامه ضد من رفضوا اعتبار قورش مسيحًا مختارًا من قِبَل الله لأنه وثني، يعود اشعيا ليشبّه الله بالأب والأم معًا: "ويلٌ لِمَنْ يقولُ لأبٍ: ماذا تلِدُ؟ ولامرأةٍ: ماذا تَلِدينَ؟" (٤٥: ٩-١٠). يتكلم الله في هذه النبوءة متدخّلاً في مواجهة من يعترضون على اختياره لقورش (أش ٤٥: ١-١٣). يلفتنا في هذه الآية استعمال كلمة "امرأة" بدلاً من كلمة "أم". ففي حين يستعمل النبي في القسم الأول كلمة "أب"، يستعمل في إزائها ليس كلمة "أم" بل "امرأة". ومع ذلك فالمعنى واضح : يشبّه النبي الله بأب وأم يلومهما البشر لعمل الولادة الذي قامَا به. إن الشعب ينتقد الله على عمله الخلاّق والخلاصي تجاهه.

أمومة الله في أشعيا الثاني: رحمة وعناية (أش ٤٤: ٢، ٢٤؛ ٤٦: ٣)

يستعمل أشعيا مرتين في الفصل ٤٤ صورة الله الذي يصنع منذ الرحم **מבטן**: "أنا الرّبُّ الذي صنَعَكَ، ومِنَ الرَّحِمِ كانَ نصيرَكَ" (آ ٢). وفي آ ٢٤: "أنا الرّبُّ فاديكَ، ومِنَ الرَّحِمِ جبَلتُكَ". يشكل الفعل **יצר**، "صنع"، في أشعيا

(١٣) في أش ٦٦: ٩ يُشبّه الله بالقابلة: "وقالَ الرّبُّ إلهُكُم: آتي بالمَخاضِ ولا أوَلِّدُ أم أُغلِقُ الرَّحِمَ وأنا المُوَلِّدَةُ؟"

(١٤) أش ١٣: ٧-٨؛ مز ٤٨: ٥-٧؛ إر ٦: ٢٣-٢٤؛ ٤٩: ٢٤؛ رج أش ٢١: ٣.

الثاني (٤٠-٥٥) جزءًا من معجم الخلق: خلق الأرض (أش ٤٥: ١٨)؛ والشعب (أش ٤٣: ١)؛ والمنفيين (أش ٤٣: ٧)؛ لكنه في الأساس يدل على عمل الخزّاف الذي يجبل الطين في خلقه آنية ما، وقد استعمله النبي هنا في تشبيهه عمل الله في رحم الأم، للدلالة على عاطفة الله وحنانه في خلق شعبه. إن في ذلك طريقة للكلام عن الله كأم للشعب.

هذا ما نقرأه أيضًا في أش ٤٦: ٣: "إسمَعوا يا بيتَ يَعقوبَ، يا بقيَّةَ بيتِ إسرائيلَ، يا مَنْ حُمِلتُم مِنَ البطن، **מני־בטן**، ورُفِعتُم من الرحم، **מני־רֶחֶם**!". للشعب المنفي المأخوذ بآلهة البابليين، يلفت النبي النظر الى أن هذه الآلهة الأصنام بحاجة الى أن تحملها البهائم (٤٦: ١)، في حين ان الله هو من يحمل شعبه. ألله الذي حمل شعبه كما تحمل الأم ابنها في رحمها، لم يترك هذا الشعب، بل ما زال ملتزمًا به كما تفعل الأم مع أولادها.

ثم يعود اشعيا الثالث الى صورة الأم ليستعملها في كلامه عن الله: "كمَنْ تُعَزّيهِ أُمُّهُ أُعَزّيكُم أنا" (أش ٦٦: ١٣).

خاتمة

الله في نظر النبي هو العلي المتعالي، الواحد الذي لا يُدرَك. هو الذي يخلق، ويؤسِّس، ويحقّق، ويثبّت، ويختار، ويدعو، ويُرسِل، ويقود، ويعلِّم، ويتمِّم تدابيره... لكنه في الوقت ذاته محبة ورحمة وحنان، رأى النبي نفسه مجبرًا على التعبير عنها بكلمات جديدة تثير الاستغراب. فيشبّه الحب الذي يكنّه الله لشعبه بحب الأم: (٤٣: ٤؛ ٤٩: ١٤-١٥)، ويستعين بموضوع الحب الزوجي والعهد الأبدي بين الزوجين ليدل على أمانة الله وحبه (٥٤: ٥-٧).

إن كان الكتّاب الملهَمون لم يستطيعوا الكلام عن الله إلا باستعمال كلام بشريّ، فليس بإمكاننا أن نحدّ الله بهذه اللغة. الله ليس مذكّرًا ولا مؤنّثًا، مع أننا ننسب إليه صفات أنثوية حينًا وذكورية أحيانًا. والصورة التي نحملها عن الله ترتبط بخبرتنا الشخصية، ذكورًا كنّا أم إناثًا، فلا يمكن بالتالي عزل الله في هذه الصورة البشرية وفي هذه اللغة المحدودة. هذا ما شدّد عليه النبي أشعيا مرارًا، مؤكّدًا أن الله لا يمكن أن يُشبَّه بشيء أو بأحد: "فبِمَنْ تُشَبِّهونَ اللهَ؟ وأيُّ شَبَهٍ تُعادِلونَهُ بهِ؟ (٤٠: ١٨): "مَنْ تُشَبِّهونَني وتُعادِلونَني؟ وبِمَنْ تُمَثِّلونَني فنَتَشابَهَ؟" (٤٦: ٥)، وأكد هوشع ذلك على طريقته بقوله: "لن أُعاقِبَكُم في شِدَّةِ غضَبي، فأُدَمِّرَكُم بَعدُ يا بَني أفرايمَ، لأنّي أنا اللهُ لا إنسانٌ" (هو ١١: ٩).